

شقت الرواية العربية طريقها بصعوبة لأنها تمرت على الصيغ المباشرة وبها استبدلت صيغا مجازية لم تكن معروفة ، ولطالما تباينت المواقف الاجتماعية من التمثيل المباشر للعالم ومن التمثيل المجازي له ، بتقديرها وعلا شأنه ، وقد ورثت ذلك عن المرويات السردية التي قوبلت بازدياد من قبل الثقافة الدينية ، لخفض قيمة هذه الكتابة الجديدة ، فإلى جواره ظهرت مواقف نقدية نظرت إلى وتعسفت في تقديم تفسير أدبي ، حاول «العقاد» (1889-1964) الانتقاص من قيمة الرواية ، فلا تستحق إلا أن تدرج في منطقة الأدب الرخيص ، فقال : «لا أقرأ قصة حيث يسعني أن أقرأ كتابا أو ديوان شعر ، البيان المنثور» . ويعود ذلك إلى الأداة الفنية والمحصول الذي يخرج به المتلقي والطبقة التي تشيع فيها الآداب ، الآداب الأخرى ، إلى ذلك فالذوق القصصي شائع ، فيما الذوق الشعري نادر ، «فليس أشيع من ذوق القصة ، وليس أسهل من تحصيل ذوق القصة ، ولا أصعب من تحصيل الذوق الشعري الرفيع حتى بين النخبة من المثقفين» (١) . ثم قرر بصراحة لا تقبل المراجعة «أن الغاية ولم يصدق هذا القول على الغاية القصوى من القصيدة» (٢) وترك آراء في هذا المجال ، وهي أسباب جرى التلاعب فيها دونما إقناع لتجعل الرواية عملاً مبتذلاً ، ليخرج من الحكم الفردي إلى الحكم العام ، لأنها لا تعد ، بأي شكل من الأشكال ، التقدير ، إذ هي في الدرك الأسفل من عالم الأدب ، فلا يجوز الاعتراف بها شكلاً أصيلاً من أشكال الأدب ، الاستغناء عنها ، اصطنع الرواية ، ويثير هذا مجال الأدب ، نخبة من المجددين شاعرا وناقدا ، الرواية ، يتوخاها القارئ من الرواية ، ومن تعد هذه النظرة القاصرة دليلاً على ضيق أفق صاحبها ، فهو ينطلق من التصور التقليدي الذي فرض وظائف ولا يغفر له عدم معرفته بالتراث القريب للرواية العربية في زمنه ، لكن «العقاد» في السبب الثالث ، حينما وهو حكم عبر وفيه استبعاد الموروث وأخيراً أدخل «العقاد» عامل الذوق ، فقرر أن ذوق الروائيين دون ذوق الشعراء ، وهذا من المزاج النقدي الذي يعجز عن لمس طرائق تلقي الآداب . التلازم بين الأسباب التي وضعها «العقاد» للحط من شأن الرواية فيه افتعال واضح وكان من الرسوخ في وعيه إلى درجة أن أكثر من سبعة عقود من تطور الرواية العربية لم يزحزح لديه ركائز ذلك التصور . لكن «زكي مبارك» (١٨٩٢-١٩٥٢) وهو معاصر لـ «العقاد» ومناظر له في اهتماماته الأدبية ، وسع مجال الانتقاص بالحط من الروائيين جملة ، فقد نقل الدنيا من الأدباء ، وأنه من النادر أن يكون من بينهم من ظفر بثقافة أدبية وافية تتيح له أن يكون ذا رأي خاص أو أسلوب طريف ، الأجنبية ، الأدب ، الحقيقي ، يمكن أن يجد سبيله في فنون أخرى كالرسالة والقصيدة ، وأنه من الخطأ أن نقيس الأدب العربي على أدب الإنجليز والفرنسيين ، عنها» (١) . وعلق «جيب» على ذلك بقوله : إن «نظرة الازدياد التي كان يقابل كانت ما تزال متحكمة وقد كان لها أعظم الأثر في إعاقه تطور القصة الرواية) كلون من ألوان الأدب العربي» (٢) وقد علم أنني أهم بوضع رواية أعالج كتابتها ، مركز الأديبي . . وكان صديقي كلما لقيني بعد ذلك وعرضت مناسبة يسألني عن الرواية : ألا أزال مصرا على وضعها ، أزيد ، فيهر رأسه أسفا مشفقا ، وتفيض نفسي بحبه وشكره على رأيه في أدبي ، وأنا على إصراري» (1) والانتقاص من شأنها ، وهو سليل عائلة ثقافية معروفة ، وقد يشفع للصديق كونه نكرة لم تتعرف ، ضرب المثل للاعتبار ، ولكن ما بال «الرافعي» (١٨٨٠-1937) أحد أكثر المثقفين العرب حضورا في الثقافة العربية في النصف الأول من القرن العشرين ، فهذا الحكم يتخطى حدود التمييز بصورة كاملة ، فلا يخصص نمطا من الروايات ، إنما وشأن «هيكل» كان كشأن «عبد العزيز البشري» (1886-1943) يتحرج من ممارسة الكتابة القصصية لأنه كان قاضيا (٣) فتجنب مشقة النظر إليه رواثيا ، وقد كان يعمل في القضاء الشرعي حيث لا يجوز له إلا الحكم بالحق . على أن الأمر الذي فاق أي تفسير ، هو موقف «توفيق الحكيم» (١٨٩٨- ) تصور الإنسان في حياته ، خدش وبعد مرور نحو مئة عام على صدور أول رواية عربية ، إلى أدب وقصة ، المعرف ، فيما الأدب هو النكرة التي نجهل موقعها طبقا لتقسيمه . فرأى لأنها تصور الإنسان في حياته ، وفي هذا يدعم ومغزاها ووظيفتها ، وطرفها الثاني الشعر ويعبر عن